

الفصل الرابع

مكانة العقل في فكر

الشيخ محمد عبده

١- تمهيد:

لم يكن الشيخ محمد عبده مجرد مصلح ديني حفزته الأوضاع الدينية المتردية التي طغت على الدين الحقيقي إلى الكشف عنها، ومحاولة إزالة الغبار الذي تراكم على المفاهيم الدينية الصحيحة على مدى قرون التخلف والانحطاط الفكري، ولو كانت هذا فقط شأن محمد عبده لكفاه ذلك فضلاً وشرقاً. ولكن محمد عبده كان -بالإضافة إلى ذلك- علماً من أعلام الفكر بالمعنى الواسع لهذا المصطلح، وكان على يقين من أن قضية إصلاح الفكر الديني لا تتفصل عن قضية إصلاح الفكر بصفة عامة، فكلاهما يؤثر في الآخر إيجاباً أو سلباً. وقد أخذ الشيخ محمد عبده على عاتقه مهمة الإصلاح بالمعنى الشامل.

وإصلاح الفكر يعنى العودة إلى مقررات العقل السليم، و تمكين هذا العقل من أداء دوره كاملاً في الحياة، ومن هنا وجدنا الشيخ محمد عبده في دعوته الإصلاحية يؤكد على أهمية العقل وأهمية دوره الحاسم في إحداث التغيير المطلوب والإصلاح المنشود، فإذا استقام الفكر استقام الفهم للدين واستقامت أمور الحياة، وانفتح الطريق ممهداً أمام الإنسان نحو تجديد الحياة وتطويرها والارتقاء بها وبناء الحضارة الإنسانية على أسس سليمة راسخة.

وتزخر كتابات الشيخ محمد عبده بالإشادة بدور العقل بوصفه أجل القوى التي منحها الله للإنسان، الأمر الذي يقتضى وضع العقل في مكانه الصحيح لهداية الإنسان وإرشاده في شتى آفاق هذا الكون الفسيح وفيما وراء هذا الكون أيضاً يقول الشيخ في هذا الصدد:

"العقل قوة من أفضل القوى الإنسانية، بل هي أفضلها على الحقيقة"^(١).

وفي موضع آخر يقول:

"والعقل من أجل القوى، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه، وكل ما يقرأ فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه"^(٢).

وقد كانت هذه النظرة للعقل الإنساني هي مرتكز دعوته الإصلاحية التجديدية التي خاض في سبيلها نضالاً طويلاً على كافة الأصعدة.

وفي هذا المقام نود التركيز على إبراز مكانة العقل في فكر الشيخ محمد عبده، وذلك من خلال عرض موجز لمنهج الشيخ في هذا الصدد والذي يتمثل في تمهيد الطريق أمام العقل الإنساني من ناحية، وفي التأكيد على الدور الفاعل المؤثر للعقل من ناحية أخرى، وليس فقط

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده ص ٧٦ - دار المنار بمصر ١٣٧٣هـ.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤.

فى مجال الأمور الدينوية؁ بل أيضاً فى مجال الأمور الدينوية وعلى رأسها قضية الإيمان الدينوى؁ كما نشير أيضاً إلى أن تمكين العقل من أداء دوره يمثل العنصر الأساسى فى البناء السليم للشخصية الإنسانية.

٢- تمهيد الطريق أمام العقل:

لقد أراد محمد عبده أن يضع الأسس الراسخة للبنیان الإصلاحى الجديد أن يمهّد الطريق أمام العقل؁ وأن يزيل العقبات التى تعترض طريقه؁ وهى تلك العقبات التى تقف حائلاً بينه وبين أداء دوره كاملاً فى هذه الحياة. وإزالة هذه العقبات تعد شرطاً ضرورياً لا غنى عنه إذا أريد للعقل أن ينهض بالدور الذى ينبغى أن يقوم به فى سبيل ترقية الحياة والنهوض بها فى كافة المستويات؁ ومن هنا كان تأكيد الشيخ محمد عبده على ضرورة التخلص من هذه العقبات أولاً حتى لا يكبو العقل متعثراً فيها إذا سار فى طريقه دون إزالتها. وأهم هذه العقبات فى نظر الشيخ يتمثل فى التقليد الأعمى وفى تخدير العقل عن طريق المصادر السيئة للتثقيف.

(أ) التقليد:

يشكل التقليد بمختلف صوره وأشكاله أهم العقبات التى تعترض طريق العقل الإنسانى فى سبيل أداء دوره الفعال والمؤثر فى الحياة؁ إذ يعد بمثابة إلغاء للعقل وقضاء على شخصية الفرد وكبت لقدراته وامتهان لكرامته؁ والإنسان الذى يكتفى بمجرد التقليد الأعمى للمذاهب والأفكار والأشخاص يتنازل عن إنسانيته؁ ويسلم زمام أمره إلى من يقوده؁ ويرتضى لنفسه أن يكون مجرد تابع لغيره؁ لا رأى له ولا تفكير. وهذا التقليد ضلال يعذر فيه الحيوان؁ ولكنه لا يصح بحال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز.

وقد رفض الشيخ محمد عبده التقيّد فى كافة أشكاله وصوره؁ وضرب على ذلك أمثلة كثيرة نذكر من بينها حديثه عن الفقهاء حيث يقول:

"جعل الفقهاء كتبهم هذه؁ على علاتها؁ أساس الدين؁ ولم يخلوا من قولهم: إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة. فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث؁ وانحصرت فى كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف فى الآراء والركاكة"^(١).

وقد شدد الشيخ محمد عبده على ضرورة تحرير الفكر من أغلال التقليد؁ وأشار إلى أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان؁ ولا معلياً لعقول على عقول. فالسابق واللاحق يستويان فى التمييز والفكرة؁ وهناك إمكانات متوفرة أمام اللاحق لم تكن متاحة لمن سبقه:

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق د. محمد عمارة ج ٣ ص ١٩٥ - بيروت ١٩٨٠.

"فاللاحق له من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه"^(١).

وأشار الشيخ محمد عبده إلى دور الإسلام الحاسم في مجال تحرير الفكر من أغلاله وقيوده حيث "أطلق سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استبعده، وردّه إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته"^(٢).

وهكذا "تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما: استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر، وبهما كملت له إنسانيته"^(٣).

وقد ظل الشيخ محمد عبده طول حياته يحارب التقليد ويدعو إلى النقد ويحث عليه بوصفه أداة لتمحيص الآراء ومعرفة وجهه الحق في الأفكار^(٤). ويلخص الشيخ دعوته إلى نبذ التقليد بقوله:

"ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف"^(٥)... والأمر الثاني إصلاح أساليب اللغة العربية"^(٦).

ويتصل برفض التقليد رفض لك سلطة تمثل ضغطاً قاهراً على الفكر لتوجيهه في اتجاه معين، وبصفة خاصة السلطة الدينية التي تجد لها مجالاً خصباً في عصور الظلام. ويؤكد الشيخ على هدم الإسلام لبناء هذه السلطة ومحو آثارها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم"^(٧).

ويعبر الشيخ عن ذلك بقوله:

(١) رسالة التوحيد تحقيق محمود أبو رية ص ١٤٥ - دار المعارف - الطبعة الرابعة.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٥.

(٤) زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ص ٣٠٩ - دار الكتاب العربي بيروت (دون تاريخ).

(٥) لم يكن محمد عبده سلفياً بالمعنى الشائع اليوم. فهذا التيار الذي يسمى نفسه اليوم تياراً سلفياً ليس له نصيب

من السلفية التي يقصدها الشيخ محمد عبده؛ إذ هو اتجاه يدخل في باب التقليد المذهبي الذي يرفضه الشيخ.

فقد دعا محمد عبده إلى فتح باب الاجتهاد والتجديد، لا يقلد مذهباً معيناً ولا يتبع فرقة بعينها فكان هو نفسه

مدرسة تجديدية تحارب الجمود والتقوقع في شتى المجالات.

(٦) نقلاً عن: زعماء الإصلاح ص ٣٢٧.

(٧) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٦.

"لقد رفع الإسلام بكتابة المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استثنائاً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم"^(١).

وهكذا لا ينبغي -بعد أن قام الإسلام بإزالة هذه العقبة الكأداء من طريق العقل الإنساني- أن تقوم فئة من الفئات بوضع هذه العقبة مرة أخرى في طريق الإنسان، فإن ذلك يعد جناية على الدين والفكر على السواء.

(ب) مصادر التثقيف:

المصادر التي يستقى منها الناس ثقافتهم ومعارفهم لها دور حاسم في التكوين الفكري للأفراد والجماعات. ومن هنا ينبغي أن تكون هذه المصادر صالحة لتغذية العقول والأفهام حتى لا تؤدي هذه العقول بما تتقله من جرائم فكرية وأوبئة ثقافية تهدم العقول وتقضى على صحة الفكر والثقافة.

ولما كانت الكتب تمثل أهم الينابيع التي تستقى منها العقول زادها فقد رأينا الشيخ محمد عبده يلفت الأنظار إلى هذه الحقيقة محذراً من الأضرار البالغة التي تنجم عن الكتب التي تعمل على تخدير العقل وتشل فاعليته، وهي تلك الكتب التي يصفها بأنها:

"كتب الأكاذيب الصرفة وهي ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع.. ومنها كتب الخرافات، وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات إلى الأرواح الشريرة المعبر عنا بالعفاريت، وتارة تتكلم في ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الأسباب التي لا مناسبة بينها وبين ما زعموه ناشئاً عنها، وتارة تثبت ما لا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف"^(٢).

ولا يخفى ما في هذه المؤلفات من أخطار، إذ هي تنتشر الجهل والخرافات بين الناس، وتحول بينهم وبين معرفة الأسباب الحقيقية للأحداث الكونية وللأحداث التي تمر بهم في حياتهم اليومية على المستوى الفردي والجماعي، وتجعلهم يركنون إلى الكسل العقلي، ويرتضون لأنفسهم الشلل الفكري، فلا يرون حقيقة ما هم عليه من جمود وتخلف وانحطاط.

والأمر مؤسف حقاً أن أمثال هذه الكتب التي تحذر العقل وتشل فاعليته لا تزال تجد لها سوقاً رائجة في أيامنا هذه.

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد نبه إلى هذا الخطر الدايم الذي شل تفكير المسلمين بالفعل زمناً طويلاً فإنه من ناحية أخرى لا يقف بنا عند حدود هذا التنبيه إلى السلبيات القاتلة،

(١) الأعمال الكاملة ج ٣ ص ٤٤٤.

(٢) المرجع السابق ص ٥٠.

وإنما يتجاوز ذلك إلى ضرورة الخروج من هذا المأزق. فإذا كانت الكتب التي أشار إليها تعد من المعوقات الرئيسية التي لا بد من تحرير العقل من أسرها فإنه من جانب آخر يوجه العقل بعد هذا التحرر إلى ضرورة التزود بالزاد الفكري السليم، وذلك بالحصول على المعلومات المفيدة والمعارف النافعة من الكتب المفيدة الصحيحة والعلوم النافعة التي تؤهل صاحبها لتمييز الغث من السمين من الأفكار، وتقويم البراهين وتسديدها وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها^(١).

وقد كان محمد عبده نفسه مثلاً عملياً لذلك حيث راح - وهو لا يزال في مرحلة طلب العلم - يغذى عقله وفكره بالعلوم العقلية والمنطقية النافعة. وقد وشى الراشون حين ذاك إلى والده بأن ولده يدرس علوم الضلالات التي توقع في الشبهات وتزلزل المعتقدات، فسافر الوالد إلى ولده فور سماعه نبأ هذه "الكارثة" ليصل إليه في القاهرة في الساعة الثالثة صباحاً محذراً بالويل والثبور وعظائم الأمور، كما يروى ذلك الشيخ محمد عبده في مقال له في صحيفة الأهرام عام ١٨٧٧. وقد هدأ الابن من ثورة أبيه وطمأنه إلى أن ما يدرسه أمور لا صلة لها بالكفر والضللال، فدراسة العلوم العقلية تعد ضرورة لا غنى عنها لأمر الدين والدنيا على السواء^(٢).

وما قاله محمد عبده عن ضرورة حسن اختيار الكتب التي تغذى العقل ينطبق على كل منتجات الفكر و الأدب والفن في أجهزة الاتصال المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية وفي المسرح والسينما والفيديو وغير ذلك من مصادر ثقافية مختلفة تؤثر بطريقة أو بأخرى في بناء شخصية الفرد والمجتمع.

٣- بناء الشخصية الإنسانية:

لقد كان محمد عبده بتأكيد على أهمية العقل وضرورة تمهيد الطريق أمامه يؤكد في الوقت نفسه على سلامة بناء الشخصية الإنسانية، ويبرز ما لها من استقلالية في الفكر والعمل، فجوهر الشخصية الإنسانية يتمثل في العقل الذي به سما الإنسان وارتفع قدره على كل الكائنات الأخرى، وليس هناك مجال للمقارنة بين الإمكانيات المادية وقدرات الإنسان العقلية، فهذه الإمكانيات بدون القدرات العقلية لا قيمة لها. والغنى الحقيقي هو في فاعلية الدور الإنساني، والفقر الحقيقي هو في غياب هذا الدور، أي في غياب العقل:

والنظرة السطحية لتشخيص حالة التخلف التي تعاني منها البلاد ترجع ذلك إلى قلة الموارد والإمكانيات المادية - كما يتردد ذلك كثيراً في أيامنا أيضاً - ولكن الشيخ محمد عبده يرفض هذه النظرة السطحية.

(١) الأعمال الكاملة ج٣ ص ١٥، ١٧، ٥١

(٢) المرجع السابق ص ١٥ وما بعدها

ويرى أن الفقر الحقيقي الذى تعانيه البلاد ليس فى قلة الموارد والإمكانات المادية، وإنما فقر البلاد يتمثل فى قلة الراشدين فيها، وغناها الحقيقي يتمثل فى كثرة المهتمين، إذ مهما كانت الموارد فإنها بدون عقل رشيد وفكر سليم لا قيمة لها:

"فماذا تصنع الوسائل المهيئة إذا لم تجد من يستعملها فيما هى وسيلة له؟ وأى شئ تفيد الغرض إذا لم تصادف من ينتهزها؟ وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل؟"^(١)

وهنا تتضح القيمة الكبرى التى بدونها لا يمكن السير فى طريق الإصلاح والنهوض، تلك هى قيمة الإنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى: الإنسان الراشد المهتم بنور العقل، الواعى بأهدافه، الفاهم لما يحيط به، إنه فى النهاية خليفة الله فى الأرض.

ومن هنا ينبغى أن تتاح الفرصة أمام الإنسان لبناء شخصيته بالتعليم الصحيح والتربية السليمة، والاهتمام بصفة خاصة بالتعليم الدينى، لأن هذا التعليم إذا كان يسير فى الاتجاه الصحيح فإنه سيقود إلى وعى عام وفهم مستدير، أما إذا كان يسير فى اتجاه غير سليم فإنه سيؤدى لا محالة إلى التخلف والانحطاط، بل إن الشيخ محمد عبده يرجع أسباب الخذلان فى المجتمع الإسلامى إلى القصور فى التعليم الدينى. وفى ذلك يقول: "إذا استقرنا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد إلا سبباً واحداً وهو القصور فى التعليم الدينى"^(٢) لأن البعد الدينى لدى الإنسان يمثل مركز الدائرة فى تكوين شخصيته، ومن هنا يمتد تأثيره إلى كل الخطوط التى تصل المركز بمحيط الدائرة.

ومما يعرقل نمو الشخصية الإنسانية ما يشيع بين الناس من جبرية مرفوضة وتواكل مذموم وسلبية بغیضة ويفرض الشيخ تفرقة حاسمة بين هذا الاعتقاد الجبرى الباطل وبين الاعتقاد بالقضاء والقدر مبيناً أن "الاعتقاد بالقضاء والقدر إذ تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك"^(٣).

فالإنسان قد حياه الله بميزة العقل والفكر ومنحه الحرية فى الاختيار والفعل، فلا يعقل إذن أن تسلب منه هذه المزايا بالوقوع فى أسر عقيدة جبرية تلغى شخصيته وتجعله كالريشة فى مهب الريح تملؤها حيث تميل، وهذا ما يبرزه الشيخ فى حديثه عن الإنسان حيث يقول:

(١) الأعمال الكاملة ج٣ ص ٤٢

(٢) نقلاً عن: الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ١٤١ - دار الفكر - بيروت ١٩٧٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٦.

"إنه مفكر مختار في عمله على مقتضى فكره، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكًا أو حيوانًا آخر، والغرض أنه الإنسان، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل"^(١).

فعميقة القضاء والقدر بعيدة إذن عن أن تكون بمثابة نوع من أنواع القهر والإجبار على العمل. وإذا كان الأمر كذلك فإن على الإنسان أن يسعى إلى بلوغ كماله النوعي الذي يتمثل: "في إطلاق مداركه عن القيد ومطالبه عن النهايات"^(٢).

وبذلك تتطلق قدرات الإنسان بلا حدود في سبيل بناء الحياة الإنسانية على كافة المستويات.

ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يخضع فكره وعقله لشيء إلا للحق وحده. وتتمثل شجاعة الإنسان في تحرير نفسه من قيود التقليد أولاً ثم في الخضوع لميزان الحق ثانياً، وفي ذلك تتمثل حريته.

يقول الشيخ في هذا الصدد:

"لا ينبغي للإنسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق، والدليل للحق عزيز! نعم، يجب على كل طالب أن يسترشد بمن تقدمه سواء كانوا أحياء أم أمواتا، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم. فإن وجده صحيحاً أخذ به، وإن وجده فاسداً تركه. والحاصل أن الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة. والشجاعة هنا قسمان: شجاعة في رفع القيد الذي هو التقليد الأعمى، وشجاعة في وضع القيد الذي هو الميزان الصحيح الذي لا ينبغي أن يقرر رأياً ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه.

وبهذا يكون الإنسان حراً خالصاً من رق الأغيار عبداً للحق وحده"^(٣).

٤ - العقل وأصول الاعتقاد:

مجال عمل العقل لدى الشيخ محمد عبده لا يقف عند حدود الأعمال الدنيوية، بل يمتد إلى أخطر قضية دينية، وهي قضية الإيمان بخالق هذا الكون، فهذا الإيمان بوجود الله ووحدانيته لا يجوز أن يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي. وإذا كان الأمر كذلك فإنه "لا يصح أن يؤخذ

(١) الأعمال الكاملة ج ٣ ص ٣٨٩.

(٢) المرجع السابق ٤٠٩.

(٣) تاريخ الإمام ج ١ ص ٧٦٢ وما بعدها (نقلا عن: الفكر الإسلامي الحديث ص ١٥٣).

الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة"^(١). لأن الإيمان بالرسل والكتب المنزلة ينبني على الإيمان بالله أولاً.

ومن أجل ذلك يؤكد الشيخ على أن الإسلام لا يعول في الدعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده إلا على: "تنبيه العقل البشرى وتوجيهه إلى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح.... وأطلق للعقل البشرى أن يجرى في سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد"^(٢).

وهكذا نرى أن الإسلام فى دعوته إلى هذا الأصل الأول من أصول الاعتقاد -وهو الأصل الذى ينبى عليه كل دين صحيح- "لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى. فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية"^(٣).

وتعد صحة العقيدة وتجريدها من الخرافات والبدع والأوهام سبيلاً إلى سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، وطريقاً إلى استقامة أحوال الأفراد واستتارة بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية، وتهذيب أخلاقهم بالملكات السليمة، وبذلك يسرى الصلاح فيهم إلى الأمة ما دام العقل هو القاعدة التى انطلقت منها أصول الاعتقاد^(٤).

وإذا كان الدين يعطى للعقل هذا الدور العظيم فى أصول الاعتقاد التى هى مفتوح كل دين فإنه من غير المعقول أن يسلب منه هذا الدور بعد ذلك فى أى مرحلة لاحقة من مراحل الدين. فهناك إذن من البداية نوع من التآخى والتألف بين الدين والعقل. وهذا موقف مبدئى لا يجوز لأى كائن مهما علا قدره ولا لأى سلطة مهما كان شأنها أن تغير من ذلك وتصطنع خصومة بين الدين والعقل.

فإذا بدا هناك ما يوحي بالتعارض بين العقل والنقل فإن القاعدة فى ذلك هى الأخذ بما يدل عليه نظر العقل ودليله. ويقول الشيخ فى هذا الصدد:

"اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي فى النظر طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله فى علمه، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل. وبهذا الأصل، الذى قام على

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٨.

(٢) المرجع السابق ص ٤٦.

(٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٨.

(٤) زعماء الإصلاح ص ٣٣١.

الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ، مهدت بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد. فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا؟" (١).

واتساع مجال العقل إلى غير حد من شأنه أن يفسح مجالاً واسعاً لاختلاف الآراء وتعدد الرؤى الفكرية، الأمر الذي يثرى الحياة الفكرية للأمة ويساعدها على الوصول إلى أفضل الآراء لحل مشكلاتها المختلفة، كما يؤدي إلى الإبداع الفكري الذي يشمل جميع مجالات الحياة. والأمة التي ينشط فيها العقل ويتحرك فيها الفكر أمة لا يخشى عليها من شيء لأنها تكون حية بحياة عقول أبنائها متحركة بحركة أفكارهم.

وفى مثل هذا المناخ الفكري السليم يخنقى التعصب الأعمى وما يصحبه من ضيق في الأفق وتحجر في الفكر، ويحل محل ذلك التسامح واحترام وجهات نظر الآخرين، وافتراس حسن النية فيما يصدر عنهم من آراء وأفكار حتى فيما يتصل بأمور الدين. وفى هذا الصدد يبرز الإمام محمد عبده "ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم، وهو إذا صدر قول من قائل يحتل الكفر من مائة وجه ويحتل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر. فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟" (٢).

٥ - خاتمة:

لقد اتضح لنا من خلال ما عرضناه فى السطور السابقة أن الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد عبده تقوم فى جوهرها على أساس من العقل وتحكيمه فى كافة المجالات وتمكينه من أداء دوره كاملاً فى هذه الحياة حتى يمكن للأمة أن تنهض من كبوتها، وتزِيل عن كاهلها أُنقال التخلف، وتسير فى طريقها بخطى ثابتة متحررة من ظلمات الجهالة وغشاوات الخرافات والأوهام متسلحة بالعلم متحصنة بالدين.

ونحن اليوم لا نزال أحوج ما نكون إلى استيعاب هذه الدروس القيمة من تراث الإمام محمد عبده، فكلماته لا تزال تعبر عن أوضاعنا وكأنه -رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان- لا يزال يعيش بيننا يشخص أدواءنا الفكرية ويصف لها العلاج، وهكذا تظل أفكار العظماء نابضة بالحياة تنتشر أضواءها فى كل مكان.

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٥٢، ٥٣.

(٢) المرجع السابق ص ٥٣.

وقد كان لأفكار الشيخ صداها الواسع في كل مكان في العالم الإسلامي. ولكن أجيالنا الجديدة تفتقر إلى معرفة عظمائها من أمثال الإمام محمد عبده والانتفاع بما خلفه لنا من فكر وما جسمته شخصيته من كفاح طويل في سبيل ترسيخ قواعد الفكر الصحيح والمنطق السليم الذي هو بداية الطريق لكل نهضة ومفتاح التقدم أمام كل أمة.

لقد دعا الشيخ محمد عبده إلى أن "العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين، فالدين عرف بالعقل، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معا حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة في المدنية الجديدة، ونقتبس منها ما يفيدنا، لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا في عزلة، ولا بد أن يتسلحوا بما تسلح به غيرهم، وأكبر سلاح في الدنيا هو العلم، وأكبر عمدة في الأخلاق هو الدين، ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحض عليه، وللعقل ويدعو إليه، وللأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها المدنية الحاضرة"^(١).

ولكن الأمر الذي يؤسف له أنه كلما سار بنا ركب النهوض خطوة إلى الأمام أطلت برأسها من هنا وهناك عناصر التخلف التي تتمسح بالدين وتتاجر بالسياسة لتجذبنا إلى الوراء خطوات. ومن هنا تعثرت الأمة في سيرها وتخلفت مسيرتها في الوقت الذي يسرع فيه غيرنا الخطى حتى بعدت الشقة بيننا وبينهم، وأصبحنا في مؤخرة الركب ننعى حظنا العاثر، ونبحث هنا وهناك عن شامعات نعلق عليها قصورنا ونقصيرنا.

إن القضية المصيرية اليوم أمام الأمة الإسلامية هي قضية التخلف في شتى المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والمادية وفي مجالات التفكير الديني، والعقل ينبغي أن يأخذ دوره كاملاً لإنقاذ الأمة من وهدة هذا التخلف. أما شغل الأمة بقضايا إطالة اللحى وتقصير الثياب والدفاع عن النقاب والسواك وتعدد الزوجات وما شاكل ذلك من أمور هامشية فإنه يعد جناية في حق الأمة وتعويفاً لها عن مسيرتها نحو التقدم واللاحق بركب العصر.

(١) زعماء الإصلاح ص ٣٣٧.

فهرس

مقدمة ٥

الفصل الأول:

الدين والفلسفة ٧

١- تمهيد:

٨ مقولات شائعة:

٩ ٢- الفلسفة ظاهرة إنسانية:

١١ ٣- صلة الدين بالفلسفة:

١٣ ٤- موقف الإسلام من الفكر الفلسفى:

١٦ ٥- مجالات النشاط الفكرى فى الإسلام:

١٧ ٦- قضية النزاع بين الدين والفلسفة:

١٩ ٧- موقف فلاسفة المسلمين من الفلسفة اليونانية:

٢٣ ٨- خاتمة:

الفصل الثانى:

٢٦ الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد:

٢٧ تمهيد:

أولاً:

٢٨ المنطلق الحقيقى لفلاسفة المسلمين فى قضية التوفيق بين الدين والفلسفة:

٢٨ (أ) قضية التوفيق بصفة عامة:

٢٩ (ب) الإسلام ووحدة الحقيقة:

ثانياً:

الموقف المبدئي لابن رشد في قضية التوفيق بين الدين والفلسفة: ٣٤

قضية وجود الله ٣٥

قانون التأويل: ٣٦

منزلة الدين من الفلسفة: ٣٨

خاتمة: ٣٩

الفصل الثالث:

مفهوم التنوير في فكر ابن رشد ٤٢

تمهيد: ٤٣

مفهوم التنوير: ٤٤

٣- ابن رشد والتنوير: ٤٥

٤- الجانب المنسي من فكر ابن رشد: ٤٦

٥- ابن رشد في فهم الرشدية اللاتينية: ٤٨

٦- التنوير الرشدي: ٤٩

٧- الصلة بين الفلسفة والدين في نظر ابن رشد: ٥١

٨- كلمة ختامية: ٥٢

الفصل الرابع:

مكانة العقل في فكر الشيخ محمد عبده ٥٤

١- تمهيد: ٥٥

٢- تمهيد الطريق أمام العقل: ٥٦

٥٦ (أ) التقليد:

٥٨ (ب) مصادر التثقيف:

٦١ ٤- العقل وأصول الاعتقاد:

٦٣ ٥- خاتمة:

اقراء

سلسلة ثقافية شهرية تصدرها دار المعارف منذ عام ١٩٤٣، مساهمة منها فى نشر الثقافة والعلوم والمعرفة بين قراء العربية صدر منها حتى الآن أكثر من ستمائة عدد لكبار الكتاب منها:

- البحر فضاءنا الداخلى
- ابتسامات وحيّة رقطاع
- الليزر الأشعة الساحرة
- النساء حين يتحطمن
- د. محمد زكى عويس
- صلاح عبد الصبور
- صور من قريب
- أبناءنا المنحرفون
- أمينة السعيد
- قاهريات مملوكية
- البطولة فى الشعر العربى
- جمال الغيطانى
- د. شوقى ضيف
- إنى صاعدة
- أحاديث حول الأدب والفن والثقافة
- حلمى سلام
- عبد العال الجمامصى
- ثقب فى الفضاء
- بنك القلق
- المهندس سعد شعبان
- توفيق الحكيم
- الغاز الطبيعى والاستخدام المنزلي
- إدارة عموم الزير
- مهندس أحمد محى الدين
- د. حسين مؤنس

• تنمية عادة القراءة عند
الأطفال

• الحرية في الإسلام

يعقوب الشاروني

د. علي عبد الواحد وافي

رقم الإيداع	١٩٩٦/٨١٦٥
التقييم الدولي	ISBN 977-02-5291-3

١/٩٦/٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)